العرب
الأربعاء 2021/08/25
السنة 44 العدد 12159

ورقة اللاجئين الأفغان تؤرق تركيا وإيران

وضع إنساني سيء يعيشه الفارون من جحيم طالبان

عكست التطورات الأمنية المتسارعة في أفغانستان مخاوف حقيقية وكبيرة لدى تركيا وإيران اللتين تسعيان إلى تعزيز نفوذهما في البلد الغارق في الفوضى لتجنب تداعيات تلك التطورات، إلا أن تدفق أعداد هائلة من اللاجئين فرض معادلات على البلدين الرئيسيين في المنطقة بالتعامل بحذر شديد مع الملف الأفغاني، خاصة أنهما لا يرغبان في تفاقم أزماتهما الداخلية الاقتصادية عبر موجات بشرية كبيرة من الهاربين من جحيم طالبان.

كابول - تسعى كلّ من تركيا وإيران، وهما الدولتان الرئيستان في المنطقة، إلى منع تدفق أعداد هائلة من اللاجئين الأفغان إلى بلديهما، في ظل تدهور أوضاعهما الاقتصادية جراء تداعيات أزمة الوباء والضغوط الداخلية والخارجية المشتركة بينهما.

وتشترك تركيا وإيران وبلدان مجاورة أخرى لأفغانستان نفس القلق والمخاوف من تدفق حشود من الأفغان إلى حدودهما على الرغم من المساعي لتعزيز النفوذ في البلد الآسيوي الغارق في الفوضى. ويخشى الأفغان من تكرار حركة طالبان التي سيطرت بشكل كامل على البلاد سياستها المتشددة في الحكم.

وتقول القوى الغربية إنها ستحكم على الحركة المتشددة التي سيطرت في الخامس عشر من أغسطس الجاري على كابول من "خلال الأفعال وليس الأقوال"، وهناك شكوك كثيرة تحوم حول الجماعة بشأن سياستها المستقبلية في ظل التعقيدات الداخلية المتعددة على أكثر من جانب.

ويمثل ملف اللاجئين الأفغان أبرز التحديات أمام الرئيس التركي رجب طيب أردوغان ونظيره الإيراني الجديد إبراهيم رئيسي، الذي بدأ مهمته مع تصاعد العنف في الجار الأفغاني ووصول حركة طالبان إلى السلطة.

وتحاول كلّ من أنقرة وطهران استخدام ورقة اللاجئين الأفغان كورقة ضغط في علاقاتهما الخارجية مع القوى الغربية، لكنها أيضا معضلة تؤرقهما في ظل الأوضاع الداخلية الاقتصادية الصعبة بفعل تداعيات الإغلاق بسبب وباء كورونا، والعقوبات المفروضة على كلا النظامين بسبب خلافهما السابق المشترك مع الولايات المتحدة والعلاقات المتوترة مع الاتحاد الأوروبي.

واستغل أردوغان ورقة اللاجئين مرارا في ممارسة الضغوط على الاتحاد الأوروبي. ويتوقع أن يعيد تكرار الأمر نفسه في ظل حديثه عن احتضان بلاده نحو ثلاثمئة ألف أفغاني فروا من بلادهم. كما عملت طهران على استخدام نفس الورقة في مفاوضاتها النووية مع الولايات المتحدة.

لكن التطورات الأمنية والسياسية المتسارعة في أفغانستان دفعت كلاً من تركيا وإيران بالإضافة إلى بلدان أخرى مجاورة إلى تغيير سياستها بشأن التعامل مع الأفغان، في ضوء التخلي السريع للولايات المتحدة عن البلد الذي غزته قبل نحو عشرين عاما.

وعلى الرغم من حديث الرئيس التركي عن العمل مع القوى الغربية لإيجاد حل لأزمة اللاجئين الأفغان، التي تفاقمت في أعقاب سيطرة طالبان على السلطة، إلا أن بلده سارع بشكل كبير إلى استكمال بناء جدار عازل على طول الحدود الإيرانية لمنع تدفق اللاجئين من أفغانستان.

كما عملت طهران على إعادة المواطنين الأفغان الفارين من بطش طالبان إلى بلدهم، عوضا عن إقامة مخيمات لجوء على حدودها الطويلة مع أفغانستان.

معاناة الأفغان

تقول الأمم المتحدة في تقرير جديد نشر بعد سيطرة طالبان على كابول إن أكثر من 18 مليون أفغاني بحاجة إلى المساعدة الإنسانية في أفغانستان البالغ عدد سكانها أكثر من 38 مليون نسمة حسب إحصاء عام 2019.

وحذرت المنظمة الدولية من كارثة إنسانية مع نزوح نحو 550 ألف شخص هذا العام، ومعاناة نحو 14 مليون شخص من الجوع. ودعت البلدان المجاورة لأفغانستان إلى إبقاء حدودها مفتوحة في ضوء الأزمة المتصاعدة في البلد الآسيوي.

وواجه الأفغان الذين تمكنوا من القيام برحلة تستغرق أسابيع عبر إيران سيرا على الأقدام إلى الحدود التركية جدارا عازلا ارتفاعه ثلاثة أمتار أو خنادق أو أسلاكا شائكة، في الوقت الذي تكشف فيه أنقرة جهودها لمنع أي تدفق للاجئين.

كما خططت طهران لإنشاء مخيمات في المدن الحدودية لاستيعاب اللاجئين، إلا أنها عدلت عن قرارها خوفا من تفاقم الأزمة مع احتمال تدفق أعداد هائلة من الأفغان.

وتعيش كابول أزمة إنسانية صعبة أخرى في ظل تدفق الآلاف من الأفغان والأجانب المذعورين على مطار العاصمة الوحيد، على أمل اللحاق بطائرات الإجلاء قبل استكمال المهمة الأميركية نهاية الشهر الجاري.

وفعل الأفغان ذلك خشية الانتقام منهم والعودة إلى تفسير متشدد للشريعة الإسلامية طبقته حركة طالبان عندما سيطرت على السلطة بين عامي 1996 و2001.

وينظر إلى الإجراءات المتخذة في كلّ من تركيا وإيران على أنها تستبق أي حشود هائلة للأفغان في حال انسداد أمر الخروج الآمن من مطار كابول، بالإضافة إلى تعكر الوضع الأمني واندلاع معارك جديدة في إطار الصراع على السلطة بين طالبان والفرقاء السياسيين الآخرين الذين لا يبدو أنهم سيقبلون بتغيير نفوذهم في المرحلة المقبلة.

حماية الحدود

عكست الإجراءات الأمنية في كلّ من تركيا وإيران مخاوفهما المشتركة من تدفق أعداد هائلة للاجئين الأفغان الفارين من بلدهم. وعززت أنقرة من إجراءاتها منذ بداية تقدم حركة طالبان في أفغانستان وسيطرتها على كابول.

وتقول أسلي آيدينتاسباس المحللة في مركز الأبحاث التابع للمجلس الأوروبي للعلاقات الدولية إن "الوضع في أفغانستان يطرح خطرا كبيرا على تركيا، بالإضافة إلى إيران التي ستخسر إذا عادت طالبان إلى انتهاج أساليبها القديمة وتؤمّن ملاذا آمنا" للمتطرفين الإسلاميين.

وتضيف أن "الملف الأكثر إلحاحا" بالنسبة إلى أردوغان هو التدفق المحتمل للاجئين من أفغانستان في الوقت الذي تتزايد فيه الاضطرابات في تركيا بسبب وجود اللاجئين السوريين في البلاد منذ عام 2011، مشيرة إلى أن الدول المجاورة "ليست لديها فكرة عمّا ستكون عليه طالبان الآن".

ولا تريد أنقرة تكرار نفس التجربة خاصة أنها تستضيف نحو أربعة ملايين لاجئ سوري، وأثار هذا الأمر موجة انتقادات وأزمات داخلية متعددة. وقد تشهد كلّ من إيران وتركيا تدفقا كبيرا للاجئين يعبر العديد منهم من إيران إلى تركيا على أمل الوصول إلى أوروبا.

وقال محمد أمين بيلمز حاكم إقليم فان الحدودي الشرقي في تركيا في مطلع الأسبوع "نريد أن نظهر للعالم كله أنه لا يمكن تجاوز حدودنا. وأكبر آمالنا هو عدم حدوث موجة مهاجرين من أفغانستان".

وتقول السلطات إنه يوجد 182 ألف مهاجر أفغاني مسجلين في تركيا وما يصل إلى 120 ألف مهاجر غير مسجلين. وحث أردوغان الدول الأوروبية على تحمل مسؤولية أي تدفق جديد، محذرا من أن تركيا لا تنوي أن تصبح "وحدة تخزين المهاجرين في أوروبا".

ويصل عدد المهاجرين الأفغان المخالفين المحتجزين في تركيا حتى الآن هذا العام إلى أقل من خمس عدد المحتجزين في 2019، ويقول مسؤولون إنهم لم يروا بعد مؤشرات على حدوث زيادة كبيرة في أعدادهم على الرغم من أن المسافات الطويلة تعني أن وصول لاجئين قد يستغرق أسابيع.

مأساة أخرى على الحدود

> أنقرة تستغل ورقة اللاجئين لممارسة الضغوط على الاتحاد الأوروبي، وطهران ستعمل الأمر نفسه في مفاوضاتها مع واشنطن

وتقول قوات الأمن إنه تتم إعادة المهاجرين الذين يتم رصدهم وهم يعبرون الحدود إلى الجانب الإيراني رغم أن معظمهم يعودون ويحاولون مرة أخرى. ويوضح حاكم إقليم فان الحدودي، "بغض النظر عن عدد الإجراءات رفيعة المستوى التي يتم اتخاذها فقد يكون هناك من يفلت منها من وقت إلى آخر".

الوضع تغير

أما في إيران فإنها تستضيف ما يقرب من ثلاثة ملايين أفغاني منهم 800 ألف فقط مسجلون رسميا. وبحسب لجنة حماية حقوق اللاجئين من النساء والأطفال في إيران، فإن هناك 950 ألف لاجئ أفغاني يحملون تصاريح إقامة، بالإضافة إلى أكثر من 1.5 مليون مواطن أفغاني يقيمون بشكل غير قانوني.

وقال اللواء حسن سلامي، قائد الحرس الثوري الإيراني في بيان في الثالث عشر من أغسطس الجاري، "إن الحدود المفتوحة مع أفغانستان آمنة تماما ولا توجد بها أي مشكلات، وإن قوات الأمن اتخذت كافة التدابير اللازمة ومستعدة بشكل جيد ولا يوجد ما يدعو للقلق".

وفي أعقاب سيطرة طالبان على كابول فرّ بعض الأفغان إلى إيران، إلا أن قوات الأمن لم تسمح لهم بالدخول. ورغم إعلان الإدارة الإيرانية عزمها إقامة مخيمات مؤقتة بثلاث محافظات لاستيعاب موجات الهجرة في الأيام الأولى للاشتباكات في أفغانستان، إلا أنها عدلت عن قرارها لقلقها من أن يؤدي ذلك إلى المزيد من موجات الهجرة نحوها.

وعلى مدار سنوات لجأ الملايين من الأفغان إلى إيران بسبب الحرب التي بدأت بغزو الاتحاد السوفيتي لأفغانستان عام 1979 والحروب الأهلية التي تلتها، ويعيش اللاجئون في إيران حياة صعبة، ويقومون بأعمال شاقة لكسب رزقهم.

وبعد الأزمة الاقتصادية عام 2018، وفرض الرئيس الأميركي السابق دونالد ترامب عقوبات اقتصادية على إيران، عاد الكثير من اللاجئين الأفغان إلى بلدهم.

وغادر الكثير من اللاجئين الأفغان إلى بلدهم في هذه الفترة بسبب خسارتهم نتيجة الزيادة الهائلة في أسعار الصرف في إيران، أما عام 2020 فلم يعد سوى 947 لاجئا فقط بسبب تصاعد الاشتباكات والمخاوف الأمنية في أفغانستان. وتحاول إيران من حين إلى آخر استخدام اللاجئين الأفغان المقيمين بها منذ 42 عاما كورقة ضغط وتهديد في التفاوض مع أوروبا.

بايدن يؤمن أيضا بمقولة «أميركا أولا»

أفشين مولافي
كاتب وخبير إيراني أميركي

"يمتلك الأميركيون ساعات اليد، ونحن نمتلك الزمن"، كثيرا ما يُستشهد بهذه المقولة والتي تعود لأحد مقاتلي طالبان، ويعيد الكثيرون استحضار هذا القول وسط كارثة تتكشف ملامحها في أفغانستان بفضل انسحاب متسرع وسيء التخطيط وقصير النظر من الناحية الاستراتيجية للقوات الأميركية وفق تعليمات جو بايدن. وكان الأمر كما لو أن الرئيس كان ينظر إلى ساعته، وينقر عليها ويقول "دعونا ننتهي من هذا الأمر قبل حلول تاريخ الحادي من سبتمبر، وننتقل إلى التحدي التالي".

وكتب أحد السفراء السابقين للولايات المتحدة في أفغانستان رايان كروكر مقالا في صحيفة "نيويورك تايمز" يدين فيه بايدن لافتقاره إلى "الصبر الاستراتيجي". وأشار كروكر في المقال إلى التقدم الكبير، وإن كان تقدما متعثرا ومليئا بالعيوب، والذي تم إحرازه في أفغانستان على مدى العقدين الماضيين، وذلك التقدم ينهار الآن على مرأى ومسمع من العالم أجمع.

وقال كروكر "عندما ترك الرئيس باراك أوباما منصبه، كان هناك أقل من عشرة آلاف جندي أميركي. وعندما غادر ترامب البيت الأبيض، كان هناك أقل من خمسة آلاف جندي، ولم تسيطر طالبان على أي منطقة حضرية رئيسية، والآن، تسيطر الحركة على البلد برمته. فما الذي تغير بسرعة وبشكل كامل؟ إنه عملنا، إنه قرار بايدن بسحب جميع القوات الأميركية، وهو القرار الذي دمر الوضع الذي كان قائما وكان وضعا يمكن تحمله ويمكن له الاستمرار إلى أجل غير مسمى بأقل تكلفة مالية وأقل إراقة للدماء".

كانت عبارة "وضع قائم يمكن تحمله" طريقة جيدة لوصف ذلك الوضع. ولا يزال أمام الأفغان جهود مضنية لبناء دولتهم، وكان معظم تلك الجهود يقوم بها الأفغان أنفسهم، تحت مظلة أمنية أميركية يمكن تحمل كلفتها. نعم، كانت هناك مشكلات وسوء إدارة وفساد، لكن يجب ألا ننسى أن أميركا أخذت من الزمن ما يقرب من عقدين وحرب أهلية للوفاء ببعض الوعود الأساسية في دستورها، كما يجب تذكر الجحيم الذي خلقته حركة طالبان للأفغان عندما حكموا من 1996 إلى 2001.

> بايدن هو السبب الرئيسي في فشل سياسة «الصبر الاستراتيجي»، إلا أن ترامب وأوباما قد زرعا جذور ذلك الفشل

قد قال هنري كيسنجر ذات يوم لأحد كبار مساعديه إن قضايا السياسة الخارجية ليست مشكلات يمكن "حلها" بل هي قضايا يجب "إدارتها"، وأراد ترامب "حل" مشكلة أفغانستان من خلال التفاوض مع طالبان وإعلان جدول زمني لسحب القوات، وكانت تلك في الأساس فكرة سيئة، فقام بايدن بتبني تلك الفكرة السيئة ووجهها بعيدا عن مسارها واصطدم بها عرض الحائط.

وفي حين أن بايدن هو السبب الرئيسي لفشل سياسة "الصبر الاستراتيجي"، إلا أن ترامب وأوباما قد زرعا جذور ذلك الفشل، ويعود ذلك جزئيا إلى تعهد أوباما بـ"إعادة التوازن" الخاص بسياسة الولايات المتحدة تجاه منطقة آسيا والمحيط الهادئ والابتعاد عن "الحروب الأبدية" لحقبة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، وهو ما يسمى بـ"المحور المائل نحو آسيا"، وهي نظرة عالمية تغلغلت إلى أن وصلت إلى قمة مؤسسة الأمن القومي الأميركية.

لم يتفق أوباما وترامب حول الكثير من الأمور وتناقض أسلوبهما تناقضا صارخا، لكنّ كليهما أراد بعمق "الخروج" من صراعات الشرق الأوسط، ليتمكنا من التركيز على الصين، وهي القوة الصاعدة في شرق آسيا. ناهيك عن حقيقة أن الولايات المتحدة لا يزال لديها عشرات الآلاف من القوات في كوريا الجنوبية وألمانيا، وهي نتيجة مخلفات صراع الحرب العالمية الثانية والحرب الكورية.

وفي مقابلة نُشرت في مجلة "ذي أتلانتيك"، وصف أوباما العديد من كبار حلفاء الولايات المتحدة في الشرق الأوسط بمصطلح "المنتفعين مجانا" بمظلة الحماية الأمنية الأميركية، مما جر واشنطن إلى صراعات إقليمية وطائفية هي في غنى عنها. وقال إن الولايات المتحدة يجب أن تركز على الأسواق سريعة النمو في آسيا وأميركا اللاتينية.

وكان هناك دافع للسياسة الواقعية وفقا لمبدأ "أميركا أولا" في نظرة أوباما للعالم والذي غالبا ما لا يُذكر لأنه كان أيضا هو الذي أوصل ترامب إلى السلطة، وهو الرئيس الذي قال علانية "أميركا أولا". وقد أظهر أوباما هذه السياسة الواقعية القاسية عندما فشل في فرض سياسة "الخط الأحمر" عندما استخدم بشار الأسد أسلحة كيمياوية ضد شعبه. وأعلن أوباما أن المصالح الأميركية الأساسية ليست معرضة لأي خطر، وبينما كان يتلقى التصفيق والتشجيع من محبيه ومعجبيه، كانت الغالبية العظمى من السوريين يتلقون البراميل المتفجرة ويعيشون في دمار.

من جانبه، كان ترامب متحمّسا لإخراج جميع القوات الأميركية الخاصة من سوريا، وقد خفف الجنرالات من حدة حماسه، في حين صرف مستشارو الأمن القومي انتباهه إلى قضايا أخرى. وعلى الرغم أن ترامب اختار المملكة العربية السعودية كمحطته لأول زيارة خارجية، إلا أن علاقاته مع القوى الإقليمية مالت إلى مبدأ عقد الصفقات منها إلى استراتيجية طويلة المدى، ودائما ما كانت تلوح فكرة "الخروج بأقصى سرعة".

في هذه الأثناء، ابتعدت مؤسسة الأمن القومي في واشنطن منذ فترة طويلة عن اختصار شائع وهو GWOT ويعني (الحرب العالمية على الإرهاب) نحو اختصار آخر جديدة GPC أو التنافس بين القوى العظمى. وتجدر الإشارة إلى أن صنع السياسات الاستراتيجية لا يجب أن يخضع للاختصارات اللغوية أو الجداول الزمنية البسيطة.

ويبدو أن جو بايدن يؤمن بالمقولة القاسية "أميركا أولا"، كما ذكر المؤلف جورج باكر في سيرة ذاتية ثاقبة لريتشارد هولبروك، لقد رد نائب الرئيس بايدن آنذاك بحدة عندما سُئل عما إذا كان لدى الولايات المتحدة التزام إنساني تجاه الشعب الأفغاني، حيث قال "فليذهب كل ذلك إلى الجحيم"، حسب ما زعم عن بايدن قوله لهولبروك في عام 2010، وحسبما نقل عنه "لا داعي للقلق بشأن ذلك، لقد فعلنا ذلك في فيتنام، وقد أفلت نيكسون وكيسنجر بفعلتهما".

وهذا الأمر يثير الذهول، خاصة أنه صدر من رئيس أعلن أن حقوق الإنسان والديمقراطية ستعود إلى أجندة السياسة الخارجية للولايات المتحدة. وفي أفغانستان، لدينا وجود متواضع للقوات الأميركية التي أبقت البلاد بعيدا عن أيدي طالبان، وهي جماعة معروفة إنها سيئة السمعة وتنتهك حقوق الإنسان، وكان لدى بايدن في أفغانستان أيضا ديمقراطية هشة وناشئة مع دولة وهيئات حكومية قائمة، والكثير من الناس يحاولون فعل الشيء الصحيح (حتى مع فساد قمة الهرم).

وإذا استعرنا مقولة كيسنجر، بدا الأمر وكأنه قضية يمكن إدارتها وليس "حلها". وبفعلته تلك المتمثلة في سحب القوات ضمن إطار زمني ضيق وعدم الاهتمام بنصائح الجنرالات، أكد بايدن أن أفغانستان لن تغيب عن الأنظار سياسيا كما كانت عليه، بل ستكون في الصدارة وبؤرة الاهتمام للسنوات الأربع القادمة.

*سينديكيشن بيرو

لا يختلف الآن عن أسلافه